

يوسف العظمة في زماينه
العثمانيّ والعربيّ

يوسف العظمة في زمانه العثمانيّ والعربيّ

غولسوم بولاظ	تمارا شير	آدم مستيان
مايكل بروفانس	عزيز العظمة	إسلام زهران
محمد جمال باروت	عمرو الملاح	أليساندرو ليفيو
نوف الخشمان		أوزغور شاهان

إشراف وتحرير وتقديم

عزيز العظمة

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
يوسف العظمة في زمانه: العثماني والعربي / آدم مستيان [و10 آخرون]؛ إشراف وتحرير وتقديم عزيز العظمة.
375 صفحة: ايضاحيات، خرائط؛ 24 سم.

يشتمل على إرجاعات بيبليوغرافية وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-766-5

1. العظمة، يوسف، 1884-1920. 2. العسكريون السوريون - تراجم. 3. معركة ميسلون - سوريا -
1920. 4. سوريا - تاريخ - العصر العثماني، 1516-1920. 5. سوريا - تاريخ - الاحتلال الفرنسي،
1920-1946. أ. مستيان، آدم (مؤلف مشارك). ب. العظمة، عزيز (مشرف ومحرر). ج. العنوان.
956.9103092

العنوان بالإنكليزية

Yusuf-al-Azma in His Two Eras: An Ottoman and an Arab

supervised, edited, and introduced by Aziz Al-Azmeh

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



شارع الطرقة - منطقة 70

وادي البنات - ص. ب: 10277 - الطعائن، قطر

هاتف: 40356888 00974

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174

ص. ب: 114965 رياض الصلح بيروت 1107 2180 لبنان

هاتف: 8 00961 1991837 فاكس: 00961 1991839

البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org

الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى

بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2026

المحتويات

قائمة الجداول والأشكال والصور والخرائط	7
شكر وتقدير	9
المساهمون	11
مقدمة: يوسف العظمة: مسارات التاريخ	
وَصْدَفَه عزيز العظمة (بالتعاون مع مايكل بروفانس)	13

القسم الأول المسار العالمي للضابط العثماني

الفصل الأول: يوسف العظمة:	
النشأة العثمانية الدمشقية	33
محمد جمال باروت	
الفصل الثاني: سيرة يوسف العظمة في ضوء المصادر	
العثمانية والبريطانية	51
غولسوم بولات - أوزغور شاهان	
الفصل الثالث: يوسف العظمة: دراسة في تجارب ضابط عثماني	
مع الجيوش الألمانية والنمساوية إبان	
الحرب العالمية الأولى	127
تمارا شير - أليساندرو ليفيو	

القسم الثاني
اللوحة السياسية لمرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى:
الاستقلال والاستعمار واستجداد العروبة

الفصل الرابع: يوسف العظمة:

المملكة العربية وتركيا الصاعدة محمد جمال باروت 151

الفصل الخامس: معلومات وشائعات ومقاومة:

المعتمد العربي في بيروت، إدارة بلاد العدو

المحتلة-المنطقة الغربية، 1919 آدم مستيان 193

الفصل السادس: يوسف العظمة وميسلون مايكل بروفانس 235

الفصل السابع: يوسف العظمة: السرديات الصحافية

والتناول العلمي وإرث ميسلون المستمر عمرو الملاح 279

القسم الثالث

ببليوغرافيا مصادر دراسة حياة يوسف العظمة

الفصل الثامن: أرشيف يوسف العظمة الرقمي:

صون الماضي وصياغة المستقبل نوف الخشمان - إسلام زهران 327

الفصل التاسع: يوسف العظمة (1884-1920):

ببليوغرافيا لمصادر دراسته العربية عمرو الملاح 335

فهرس عام 359

قائمة الجداول والأشكال والصور والخرائط

الجدول

- 333 (1-8): تصنيف موضوعي مقترح

الأشكال

- 328 (1-8): أرشيف يوسف العظمة الرقمي
331 (2-8): البيانات الوصفية لأرشيف العظمة
332 (3-8): عرض المادة في الأرشيف

الصور

- 42 (1-1): موكب محمل الحج، دمشق
44 (2-1): أسرة عزيز العظمة
(1-2): العظمة، برتبة نقيب أركان حرب، متقلداً ميدالية المعارف
56 الفضية الخاصة بالحائز على المرتبة الثانية
58 (2-2): يوسف العظمة وأصدقاء في إسطنبول (1908-1909)
60 (3-2): صورة للعظمة في عام 1909 في الثكنة السليمية
64 (4-2): في مصححة فالمون (1912)
65 (5-2): في حلوان (1913)

- (6-2) يوسف العظمة في الإسكندرية عام 1914 68
- (7-2): في جبهة غاليلوي، 1915 74
- (8-2): العظمة رفقة أنور وجمال وشيليندورف
 أمام المدرسة الصلاحية في القدس، 1916 78
- (9-2): في برايلا-رومانيا، 11/11/1333 (1917) 97
- (10-2): في بريست ليتوفسك عام 1918 99
- (1-3): العظمة بالزري الرسمي في جبهة غاليسيا، متقلداً أوسمته، صيف 1917
 (Photograph of Yusuf Al-Azmeh – Bavarian Main State Archives
 142 (Bayerisches Hauptstaatsarchiv), BS P III 857)
- (1-4): استقبال الملك فيصل في حلب، 1920 167
- (1-6): يوسف العظمة وزيراً للحربية (1920) 237
- (1-7): تمثال يوسف العظمة 301
- الخريطة**
- (1-6): خريطة موقع ميسلون 268

شكر وتقدير

ما كان لهذا الكتاب أن يبصر النور لولا الدعم السخي الذي قدمه المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في الدوحة. شكّل محرر هذا الكتاب فريقاً بحثياً دولياً من المؤرخين والخبراء في مجالات شتى، لاستكشاف المادة الأرشيفية المتاحة وتقصّيها تقصيًّا منهجياً متعدد اللغات، والوقوف على تقارير شهود العيان، والمذكرات، والوثائق المكتوبة بضمير المتكلم، فضلاً عن الصحافة المعاصرة لتلك الحقبة. وقد بلغ عدد الوثائق التي عكف الفريق على دراستها قرابة اثني عشر ألف وثيقة متنوعة، ما بين رسمية وخاصة، تراوح أحجامها بين أسطر معدودة، وسجلات الجيش العثماني، وتقارير استخبارية وافية. وخضعت جميع هذه السجلات والوثائق للرقمنة. وتضمّ هذه المجموعة أيضاً صوراً فوتوغرافية، تعود ملكية معظمها إلى كل من جلال بك أشار، الحفيد الوحيد ليوسف العظمة، ومحرر هذا الكتاب. وستتيح مكتبة المركز العربي ومعهد الدوحة للدراسات العليا جميع هذه المصادر والمواد الوثائقية للاطلاع في حينه، وفق نظام الوصول المفتوح (Open Access).

وقد واكبت عملية التنقيب الأرشيفي مراسلات واجتماعات عن بُعد ومداولات كثيرة بين أعضاء الفريق، تلاها اجتماع الباحثين المساهمين في هذا المؤلّف في ورشة عمل عُقدت في إسطنبول في نيسان/ أبريل 2025، لعرض نتائج أبحاثهم ومناقشتها ومقارنتها، والربط بين ما تشتت من خيوط وقرائن تاريخية لم تكن مترابطة حتى ذلك الحين. وبعد ذلك، خضعت كل الأوراق البحثية المقدمة لورشة العمل للمراجعة والتنقيح، وللتعليق والتداول والبحث في ضوء تلك النقاشات وما تلاها من تبادلٍ للآراء.

وأود أن أعبر عن امتناني الخاص لسمير سعيغان، مدير مركز حرمون للدراسات المعاصرة في إسطنبول، الذي استضاف ورشة العمل، ولفريقه المتفاني والتميز بالكفاءة العالية. وأتوجه بالشكر والتقدير إلى كل من الدكتور نيكولا بانيتش (Nikola Pantic) والسيد جاحظ قرميش (Jahiz Guermiche) على مساعدتهما القيّمة في التحرير والبحث، ولكل من الدكتورة نادية البغدادى والدكتورة أمل غزال والدكتورة دينا خوري على مساعدتهن ومشورتهن السديدة.

وأود في الختام أن أتقدم بخالص الشكر إلى الزملاء الذين أسهموا في إعداد هذا الكتاب، تقديرًا لاستجابتهم الكريمة للمشاركة في هذا المشروع، ولما أظهره من تعاونٍ مثمر واستعداد للعمل بروح الفريق الواحد.

كما أود أن أعبر عن بالغ امتناني للسيد جلال آشار، حفيد الشهيد يوسف العظمة، لاهتمامه و صداقته ولحسن تعاونه. ولا بد لي أن أشكر السيدة تيريز سركيس وسائر فريق المركز العربي في بيروت لعنايتهم ودقة التحرير ومهنتهم وعملهم على إخراج هذا الكتاب بأفضل حلّة ممكنة.

عزيز العظمة

9 حزيران/ يونيو 2026

المساهمون

آدم مستيان (Adam Mestyan)

مؤرخ وأستاذ كرسي فورد لدراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفارد، الولايات المتحدة؛ تتناول أبحاثه التاريخ الحديث لسورية ومصر.

إسلام زهران

مسؤول المعالجة الفنية لمجموعة الوثائق وأمين مكتبة في معهد الدوحة للدراسات العليا والمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر.

أليساندرو ليفيو (Alessandro Livio)

باحث ومؤرخ، وطالب دكتوراه في جامعة فيينا؛ يركّز في أبحاثه على التاريخ العسكري الأوروبي الحديث والتاريخ النمساوي-المجري.

أوزغور شاهان (Özgür Şahan)

باحث وطالب دكتوراه في قسم التاريخ بكلية الآداب في جامعة أنقرة حاجي بيرم ولي، تركيا؛ متخصص في تاريخ الجمهورية التركية؛ تتمحور أبحاثه حول فترات الإصلاح في التاريخ العثماني.

تمارا شير (Tamara Scheer)

مؤرخة وباحثة في قسم الدراسات التوراتية واللاهوت التاريخي بجامعة إنسبروك، ومحاضرة في معهد تاريخ أوروبا الشرقية بجامعة فيينا، النمسا؛ تتمحور

أبحاثها حول تاريخ الإمبراطورية النمساوية-المجرية العسكري، بما في ذلك التنوع اللغوي، ونظم الولاء داخل الجيش، وتاريخ الطب العسكري.

عزيز العظمة

أستاذ فخري متقاعد في جامعة أوروبا الوسطى (Central European University-CEU) في فيينا، النمسا.

عمرو الملاح

كاتب وباحث ومترجم، وباحث رئيس في الموسوعة العربية، وباحث مشارك في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر.

غولسوم بولات (Gülsüm Polat)

أستاذة مشاركة في قسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة أنقرة حاجي بيرم ولي، تركيا؛ متخصصة في تاريخ الجمهورية التركية.

مايكل بروفانس (Michael Provence)

أستاذ كرسي باتريك هيلي التذكاري لدراسات الشرق الأوسط في جامعة كاليفورنيا، سان دييغو، الولايات المتحدة؛ متخصص في تاريخ العرب في القرن العشرين.

محمد جمال باروت

باحث مشارك في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر؛ متخصص في التاريخ الاجتماعي والسياسي السوري الحديث.

نوف الخشمان

مديرة المكتبة في معهد الدوحة للدراسات العليا والمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر؛ متخصصة في إدارة المعلومات والمكتبات.

مقدمة

يوسف العظمة: مسارات التاريخ وصدفه

عزيز العظمة (بالتعاون مع مايكل بروفانس)

بُعِيدَ مصرع يوسف العظمة (1884/1885-24 تموز/يوليو 1920)، وزير الحرية في المملكة العربية في دمشق، في معركة ميسلون (24 تموز/يوليو 1920)، أثناء قيادته المقاومة العسكرية في وجه الغزو الفرنسي لسورية، تَكَرَّست مكانته بوصفه بطلاً وطنياً للبلاد الناشئة، وظل كذلك في وجدان الأجيال المتعاقبة من السوريين. وكان لقبه المألوف هو الشهيد يوسف العظمة. وينبغي توخي الحذر هنا إزاء احتمالات التأويل المفرط التي تُستغل بكثرة؛ فكلمة شهيد تعني، بالمفهوم الديني التقليدي، من يبذل نفسه في سبيل معتقده. بيد أنها اكتسبت في استعمال العربية الحديثة دلالة علمانية تفيد التضحية بالنفس في سبيل قضايا نبيلة، غالباً ما تكون وطنية، وباتت تُطلَق اليوم على صورة رسالة على كل من يلقي مصرعه في الحرب إن كان مقاتلاً أو لم يكن، في حين عادةً ما يُشار إلى من يُقتلون من الطرف الآخر بصفة "قتلى" فحسب. وقد شهدت العربية الحديثة تحولاً دلالياً مماثلاً، لم يخلُ من التباس وتداخل في بعض الأحيان، مع مفردة "أمة" (بمعنى الشعب أو الوطن) تمييزاً لها من مفهوم الأمة الإسلامية التقليدي، أو حتى مفردة "جهاد" أو "فتح" التي باتت تدل على الكفاح النبيل (والسعي الدؤوب) تمييزاً لها من المعنى الإسلامي التقليدي للحرب المقدسة.

خُلِّدت ذكرى العظمة على نطاق واسع بإقامة التماثيل وإصدار الطوابع البريدية وسواها من الوسائط البصرية. ويُزَيَّن اسمه عددًا لا يحصى من المدارس

والمعاهد والثكنات والشوارع والساحات، ليرتد صدها بقوة في أوساط المجتمع السوري وخارجه. ونُظِم فيه شعُرٌ وطني أسهم فيه كبار الشعراء العرب، من أمثال أحمد شوقي (1868-1932) الذي ينتمي إلى مدرسة الإحياء الكلاسيكي في الشعر العربي، والشاعر والدبلوماسي السوري عمر أبوريشة (1910-1990). وقد غدت قصيدة الأخير الميسلونيّة "عروس المجد" جزءاً من مناهج الأدب العربي في المدارس الثانوية السورية، ولُحِنت على غرار الموشحات لتغنيها عام 1947 المطربة الدمشقيّة سلوى مدحت (1929-2000) التي طواها النسيان اليوم مع الأسف. ولُحِنت أيضًا أعمال موسيقية وأغانٍ وطنية في مديحه، أدهتها سيدة الغناء اللبناني فيروز (1935-).

لطالما كان استحضار ذكرى يوسف العظمة مهيمناً وحاضراً في كل مكان، غير أنه عاد إلى البروز بعد سقوط النظام السوري في كانون الأول/ديسمبر 2024 بإلحاح متجدد، في ظل السعي الحثيث لكثير من السوريين لإيجاد رموز وطنية جامعة تحل محلّ التركة البعثية، وتحت وطأة الضغط الذي يرمي إلى نبش رموز إسلامية عتيقة تتماشى مع توجهات الائتلاف الحاكم الجديد الذي تسلّم مقاليد السلطة في الشهر ذاته. وفي أثناء الحروب الأهلية التي عصفت بسورية بين أواخر عام 2011 وأواخر عام 2024، اتخذت تشكيلات عسكرية مختلفة اسم يوسف العظمة في قتالها ضد نظام بشار الأسد. وعقب انهيار النظام القديم، وانعقاد الآمال على بناء نظام سياسي جديد، استحضر كثير من السوريين بإلحاح صورة العظمة بوصفه يمثلّ الرمز الأبرز للوحدة الوطنية والجاذبية القيادية المؤثرة، الكاريزماتية. غير أن السلطات المحليّة الإسلامية عازمت في ربيع 2025 على إزالة اسمه من إحدى مدارس حماة؛ وقد عمد مسؤولون في الحكومة الجديدة إلى استبدال أسماء العديد من المؤسسات التي تحمل أسماء شخصيات وطنية وأدبية سورية ذائعة الصيت، بأسماء تنتمي إلى الحقبة الإسلامية الغابرة، التي يُعدّ الكثير منها مجهولاً تماماً إلا لدى أصحاب الميول السلفية الراسخة. ومع هذه المحاولات للمحو الرمزي لتاريخ سورية الحديث، تكتسب النقاشات بشأن إعادة النظر في أساليب كتابة تاريخ البلاد المعاصر وفهمه إلحاحاً أكبر، ولا سيما في ظل الزخم السياسي الكبير الذي تشهده النقاشات تلك في الوقت الراهن التي تتخذ طابعاً سجالياً مفرطاً في الأدلجة. ويرمي هذا الكتاب - ونأمل أن تتبعه كتب أخرى لمؤلفين كثر - إلى الاحتكام إلى الدقة التاريخية والرصانة التأريخية المنهجية.

غدا يوسف العظمة، عقب مصرعه المأساوي في ساحة المعركة، البطل الوطني الأبرز المُحتفى به، وكثيرًا ما تُستحضر ذكره في المناسبات التذكارية وسواها من الطقوس السياسية. وسرعان ما أُدرجت الكتابات عنه والإشارات إليه ضمن خطاب المدائح والسير التبجيلية والمناقب والرثاء، متجليةً في سرديات مناهضة الاستعمار، وسير البطولة الفردية، وتغذية النزعات الوطنية الأخلاقية والمناقبية القائمة على التضحية. وفي خضم ذلك كله، وعلى مستوى الوعي العام، ظلَّ العظمة، بوصفه شخصية تاريخية واقعية، مجهولًا إلى حدٍّ بعيد، بعدما حلَّت محلّه الصورة الرمزية التي تجسّد دلالتة المعنوية. وهكذا بقي الرجل، والضابط، والجندي، ثم السياسي في نهاية المطاف، بعيدًا عن الوعي العام بوصفه إنسانًا من لحم ودم، ولم يتجاوز حضوره العينيّ حدود الحكايات العابرة. وقد كان أنموذجه بمنزلة وعاء تُسكب فيه المعاني والتوقعات بطرائق متباينة تبعًا للأحوال والمستجدات. وأُحيطت صورته بهالة من التبجيل على مدى عقود طويلة، ولا سيما في صفحات كتب التاريخ المدرسية.

ويقف هذا الحضور الطاعي ليوسف العظمة البطل على النقيض من المعرفة الشحيحة بيوسف العظمة الإنسان التاريخي؛ ويرجع ذلك في جزء منه إلى عدم كون الوثائق المتعلقة بحياته سهلة المنال. وعلى الرغم من وجود الشهادات المباشرة وروايات شهود العيان، فإنها قلما قُرئت، في حين سرت مرويات كثيرة، شفوية ومكتوبة على حد سواء، قامت على الشائعات أو الأقاويل أو الاختلاق. ولا يكاد يوجد التفات يُذكر إلى العظمة بمعزل عن صنيعه البطولي المتمثل في الدور الرمزي الذي اضطلع به بوصفه قائدًا عسكريًا شجاعًا، استعان بما تمكّن من حشده من شتات الرجال والعتاد لصدّ الغزو والاحتلال الفرنسيين، أو على الأقل لضمان ألا يمرّ هذا الاحتلال من دون مقاومة. ويمكن القول، من دون مبالغة، إنه مثل نقطة تحوّل تاريخية فاصلة؛ تلك اللحظة التي أذنت بأفول الإمبراطورية العثمانية والعبور نحو مرحلة جديدة كانت لا تزال قيد التشكل، ولكن بخطى غير واثقة ونتائج لم تكن معالمها قد اتضحت بعد، بل إنه وجد نفسه في تلك اللحظة الفاصلة بين عالم مألوف آفل، وعالم جديد صنعه استعمار جارف وغير مألوف في سياقه العثماني.

مسيرة يوسف العظمة

من كان يوسف العظمة حقًا؟ يستكشف هذا الكتاب، للمرة الأولى، مسارات العظمة الشخصية والعسكرية والسياسية، استنادًا إلى الوثائق الأرشيفية والمواد التوثيقية الأخرى. وذلك بالاعتماد على مادة تاريخية مستقاة من الأرشيف العثماني الزاخر في تركيا، ومن أرشيفات فرنسا وبريطانيا. أمّا أرشيف ألمانيا العسكري في بوتسدام (Potsdam)، فقد دمره قصف الحلفاء في غارة جوية عام 1945، لكن يمكن تقصي بعض آثاره في بافاريا والنمسا.

جُمعت مواد وثائقية إضافية كانت بحوزة حفيد يوسف العظمة الوحيد جلال أشار (Celal Açar) في إسطنبول، وأخرى بحوزة محرر هذا الكتاب، وتتكون بصورة أساسية من صور فوتوغرافية ورسائل قصيرة. وتتوافر مادة غنية بالعربية يكتسب بعضها قيمة إفادات شهود العيان، بما في ذلك مذكرات ويوميات وتقارير صحفية، تكاد تقتصر في مضامينها على الأشهر الأخيرة من حياة العظمة، وقد كُتبت كلها بعد وفاته. وتتوافر اليوم مذكرات الجنرال ماريانو غواييه (Mariano Goybet) (1861-1943) ويومياته محررة ومنشورة، وكان هو الذي تولى قيادة الجانب الفرنسي في معركة ميسلون.

باستثناء سجل رسمي شحيح، وبعض الصور الفوتوغرافية، ومعطيات ضئيلة جدًا عن حياته الشخصية، لا يتوافر لدينا سوى قرائن قليلة عن آراء العظمة وعلاقاته السياسية والاجتماعية، أو عن الأوساط الاجتماعية التي نشط فيها. وتغيب أيضًا أيّ شهادة مباشرة من الدائرة الضيقة المقربة منه؛ إذ تحول شقيقه الأكبر عزيز العظمة (1856-1942) إلى باحث مستقل بعد تقاعده المبكر، وصنف مؤلفًا ضخماً في تاريخ دمشق، خصص أحد مجلداته لتاريخ المدينة وإثنوغرافيتها في أواخر العهد العثماني وأوائل عهد الانتداب. ويزخر كتابه مرآة الشام بمادة غنية عن المملكة العربية والانتداب من منظور دمشقي، غير أنه كُتب بنبرة متزنة رصينة تليق بمؤرخ، يتخللها بعض الآراء الخاصة التي تتضمن تقييمًا سلبياً للهاشميين، ولا تتناول يوسف من نواح غير معلومة. أمّا ابنا شقيقه عزيز، وهما عادل العظمة (1888-1952) ونبیه العظمة (1886-1972)، فقد توفي الأول بمرض الالتهاب الرئوي، قبل ظهور المضادات الحيوية، في ذروة مسيرته السياسية،

من دون أن يخلف وراءه أيّ مذكرات. في المقابل، أملى نبيه⁽¹⁾، الذي كان، بحسب معارف العائلة، أقرب الناس إلى يوسف العظمة والحارس لذكراه، في أواخر حياته، مذكراتٍ مقتضبة وشحيحة جدًا على الأديب والبرلماني السوري، وواضع أول قاموس عربي-صيني، سلامة عبيد (1921-1984)، المنحدر من أسرة في السويداء برز بعض أفرادها في ثورة عام 1925. واقتصر ذكر يوسف العظمة في تلك المذكرات على حكايات عابرة تعود إلى مرحلة الطفولة، ولم يُعرف عن بقية أفراد العائلة تدوين أيّ شهادات أخرى.

بناءً على ذلك، ليس مستغرباً أن نعجز عن سبر أغوار أفكار يوسف العظمة وآرائه في السياسة والقومية والمجتمع والدين والتقدم والعلم، وهي القضايا التي شكّلت الملامح الذهنية البارزة لطبقة الضباط العثمانيين التي انتمى إليها. كذلك، لا يُعرف الكثير عن صداقاته وشبكات علاقاته الاجتماعية، أو عن صلته بشقيقه طاهر وزكي، وابن شقيقه الأكبر وحيد، وقد خدم اثنان منهم ضابطين في الجيش العثماني، باستثناء إشارات عابرة وردت في إهداءات أو رسائل مدوّنة على صور فوتوغرافية. ولا تتوافر لدينا معلومات مؤكدة عن أي تواصل للعظمة مع الأوساط والجمعيات العربية أو العروبية، وإن نُسب إليه ذلك أحياناً، ولا نعرف الكثير عن صلته في بيروت أو إسطنبول بسليم علي سلام (1868-1938)، عضو البرلمان العثماني والمشارك في المؤتمر العربي الأول في باريس (1913)، الذي ارتبط به، استناداً إلى رواية صائب سلام، بعلاقة صداقة في أيام إقامته في بيروت، وإن كانت الإشارات التفصيلية المحيطة بنشاطاته السياسية في بيروت ودمشق في عامي 1919 و1920 قد تقدّم بعض الخيوط في هذا الشأن.

ولا تزال الظروف التي أحاطت بزواجه من ابنة وزير عثماني مجهولة، وكذلك تاريخ الزواج، شأنها في ذلك شأن شبكة علاقاته الاجتماعية. وأما الصور الفوتوغرافية المُلتقطة لأرملته منيرة وابنته ليلي، فهي تحاكي النمط المألوف لصور العثمانيين ذوي النزعة التحديثية، وكذلك الصور العائدة إلى المرحلة المبكرة من الجمهورية التركية، متوافقة مع الأسلوب الأوروبي العالمي للصور الشخصية في ذلك العصر.

(1) ضابط عثماني خدم في الحرب الإيطالية-العثمانية في ليبيا (1911-1912)، التي خدم فيها أيضًا مصطفى كمال (أتاتورك لاحقاً)، وفي حملة السويس، ثم فلسطين حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، ثم أصبح سياسياً عربياً وسورياً حتى أوائل الستينيات من القرن الماضي.

تحظى حياة يوسف العظمة ومسيرته المهنية، بما انطوت عليه من منعطفات مثيرة ومجهولة حتى الآن، باهتمام خاص من جوانب عدة؛ إذ تتقاطع مع تيارات شتى شهدتها الإمبراطورية العثمانية في أواخر عهدها، ومع نشأة النظام السياسي في بلاد الشام في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى. ولا يُعرف سوى النزر اليسير من التفاصيل الملموسة عن طفولته ونشأته. كان العظمة ضابطاً أركان عثمانياً من مواليد دمشق، وُلد لإبراهيم العظمة وليلى الشربجي. وقد تدرّج سريعاً في الرتب العسكرية، ونال أوسمة رفيعة، وتلقّى تدريباً في ألمانيا، فضلاً عن امتلاكه خبرة حربية ميدانية واسعة. وفي عام 1909، وفي أثناء خدمته العسكرية في أدرنة، شارك بفاعلية في قمع ما عُرف بـ "واقعة 31 آذار/ مارس". وكان هذا التمرد قد قاده ضباط الصف من الجيش، بدعم من جماعات محافظة، ودينية على وجه الخصوص، احتجاجاً على تسلّم جمعية الاتحاد والترقي مقاليد السلطة وإعادة العمل بالدستور الذي كان السلطان عبد الحميد الثاني (تولّى السلطنة بين عامي 1876 و 1909) قد علّقه عام 1878. وقد قضى "جيش الحركة" - الذي شارك فيه مصطفى كمال أتاتورك (1881-1938) أيضاً في دور قيادي - على هذا التمرد، وهو ما أسفر، من جملة أمور أخرى، عن خلع السلطان عبد الحميد الثاني ونفيه إلى سالونيك.

شارك العظمة في حملة الدفاع العثمانية المضفرة عن جناق قلعة-غاليبولي إبان الحرب العالمية الأولى؛ وربما كانت بطارية مدفعية خاضعة لإمرته هي التي أطلقت القذيفة التي أصابت سيارة تابعة لقيادة الأركان الفرنسية؛ ما أدى إلى بتر الذراع اليمنى للجنرال الفرنسي هنري غورو (Henri Gouraud) (1867-1946). ومن مفارقات الأقدار التاريخية أن غورو - الذي حظي بسيرة حافلة في مغامرات فرنسا الاستعمارية في شمال أفريقيا وغربها، وفي معركة المارن (Marne) في فرنسا إبان الحرب العالمية الأولى - كان هو ذاته المفوض السامي الفرنسي في سورية الذي أصدر الأوامر باحتلال سورية وخوض المعركة التي قضى فيها العظمة. وبحلول ذلك الوقت، كان العظمة في طريقه ليصبح فاعلاً رئيساً في المشهد السياسي الوطني لتلك التجربة السياسية القصيرة العهد، ونعني بها المملكة العربية بدمشق في عام 1920، التي لم تدم سوى أربعة أشهر ونيف. وقبل ذلك، كان قد عمل مرافقاً عسكرياً للأمير فيصل (1888-1933)، وممثلاً في بيروت للجيش العربي (الخاضع للتوجيه البريطاني)، ثم رئيساً للأركان، فوزيراً للحربية في عهد الملك فيصل.

مراجعة المسارات: منظورات جديدة

ربما كان جزءٌ كبير من هذا المسار مألوفًا في ذلك الزمان وتلك المنطقة؛ فقد كان يوسف العظمة، من المنظور السوري، ينحدر من أصول محلية، لكنه كان عثمانيًا الثقافة والمسيرة المهنية والولاء السياسي، وهو نمط لم يكن غريبًا على امتداد قرون خلت. وكانت عودته إلى وطنه عقب الحرب وليدة الظروف التي استجدت بعدما وضعت الحرب أوزارها. فقد كان دمشقيًا ينتمي إلى عائلة عريقة عملت في خدمة الدولة العثمانية فترة طويلة، وكان وثيق الارتباط والصلة بتلك الدولة. وقد آذنت الهزيمة العثمانية بعد الحرب، وعودته إلى سورية، وانخراطه في المملكة العربية في ظل ظروف لا يزال يكتنفها بعض الغموض، بدخوله مرحلة مجهولة ومحفوفة بالشكوك في عالم ما بعد الإمبراطوريات الآخذ في البزوغ وغير المألوف. ويورد بعض المساهمين في هذا الكتاب مادة تاريخية توحى بأن العظمة سعى لربط مسار سورية بسلسلة الحوادث التاريخية الكبرى التي عُرفت لاحقًا بحرب الاستقلال التركية، إلى جانب مصطفى كمال ومن تبقى من الضباط والبروقراطيين العثمانيين الذين قادهم. وربما شكّل ذلك مسارًا موازيًا للتطور الاستراتيجي في الأناضول، كان من شأنه، لو كُتب له النجاح، أن يفتح أفقًا لتأسيس دولة اتحادية مستقلة ومشاركة في مرحلة ما بعد العثمانية، تركز على شبكات العلاقات التاريخية والثقافة الحديثة والروح العسكرية المشتركة بين الضباط والسياسيين العرب والأتراك. وثمة شهادات عديدة تؤيد هذا الطرح.

وتبرز البحوث الواردة في هذا الكتاب ذلك التجديد التأريخي الخارج على السرديات التبسيطية المألوفة، التي دأبت على التركيز على الانقسام والعداء المتبادل بين العرب والأتراك، وهو ما كرّسته أدبيات التأريخ للقومية العربية والقومية التركية على حد سواء، فضلًا عن التأريخ الاستعماري لتفتّت المشرق العربي بعد الحرب. وبناءً على هذه الرؤية القومية، بدا احتمال الوحدة في مرحلة ما بعد العثمانية، أو المقاومة المشتركة للهجمة الاستعمارية، أمرًا عصيًا على التصور من الناحية التحليلية، إلى أن طرأت تحولات على المنظور التأريخي في العقود الماضية، أفضت إلى رؤى جديدة بشأن هذه الحقبة الحاسمة التي أعقبت الحرب في أواخر العصر الإمبراطوري. غير أن معظم هذه الأطروحات لا يزال محصورًا في الأوساط الأكاديمية، ولا يبدو أن له أصداء ملموسة في الثقافة السياسية، سواء العربية منها أو التركية.

أكد المؤرخون الطابع المضطرب الذي اتسمت به المرحلة التي أعقبت الحرب مباشرة. بيد أن مساءلة السرديات المتوارثة ومراجعتها لم تفض إلى جلاء الغموض الذي لا يزال يكتنف شخصياتها المحورية؛ ذلك أنها ظلت شخصيات تاريخية فاعلة مثل يوسف العظمة قابعة في الظل، وما فتئت تفاصيل حياتها ونشاطاتها، بل أهميتها التاريخية، مجهولة حتى الآن. وقد استحوذت المدة الوجيزة لمملكة فيصل (آذار/ مارس-تموز/ يوليو 1920) واستشهاد العظمة البطولي في ميسلون على اهتمام المؤرخين منذ جورج أنطونيوس (1891-1942) وساطع الحصري (1880-1968)، كلٌّ على طريقته. غير أن المؤرخين تعمدوا إبقاء الشخصيات التي تقف خلف تلك الحوادث المأساوية غامضة في رواياتهم لها خلال العقود الأولى؛ نظرًا إلى إدراكهم اليقيني أن تفاصيلها شائكة ومربكة وتتعارض مع غايتهم في تقديم مأساة وطنية بطولية لا تتواءم فيها، منطقية على عَبر للمستقبل. كيف يمكن أن يفهم المرء، على سبيل المثال، تلك الصلات القائمة بين الملك فيصل وأبيه وإخوته من جهة، ومجموعة من عملاء الاستخبارات البريطانية من جهة أخرى، كانت قد روّجت في بادئ الأمر لـ "التحرر القومي العربي" المرتبط بعملية استخبارية سرية مناهضة للعثمانيين، قبل التخلي عن هذا الشعار بأسلوب فج ومن دون أدنى مبالاة حينما فرضت فرنسا إرادتها في عام 1919؟ وكيف يمكن فهم إحياء شعار التحرر هذا ذاته بوصفه استراتيجيا لمكافحة التمرد في العراق بعد بضعة أشهر، حين نُقل فيصل إلى بغداد؟

أقحم العظمة، طوعًا أو كرهًا، في معترك سياسي لم يكن مهياً له، وفي عالم لم يكن يألفه وقد داهمته تحولاته على نحو مفاجئ. غير أن تلك الدوامة لم تكن سوى أحد تجليات التحولات الكبرى التي شهدتها المنطقة في أعقاب الحرب؛ إذ تحوّل الأتراك سريعًا إلى فاعل تاريخي ذي سيادة وأمة تاريخية مكتملة، في حين تعثّر العرب، وانتقلوا من حال إلى حال، من دون أن يكتسبوا فاعلية تاريخية مستدامة. وكان العظمة واحدًا من القلة الذين ارتقوا إلى مستوى الحدث والتحدّي، بما أظهره من فروسيّة وشهامة ورومانسية تراجيدية في ميسلون. والحال أن الأبطال غالبًا ما يكونون شخصيات تراجيدية، تغلبهم أحداث عصيّة على الإحاطة والفهم، ولم يكن الظفر حليف إلا قلة قليلة منهم.